

الصورة الثقافية في رحلة ابن قنفذ القسنطيني

The cultural image in the journey of Ibn Qunfad al-Constantin

محمد سرير^{*1}¹ جامعة يحيى فارس المدية، serirmohamed_2017@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2021/04/30 تاريخ القبول: 2022/02/28 تاريخ النشر: 2022/06/05

ملخص:

ضع قد عرفت الجزائر ثلة من العلماء الذين وهبوا حياتهم للعلم والمعرفة، عاملين على الاتصال بالشيوخ والعلماء طلبا للعلم فارتحلوا إلى مشارق الأرض ومغاربها، ثم عادوا للوطن معلمين ومؤلفين، من بين هؤلاء ابن قنفذ القسنطيني الذي عاش في القرن 8 هـ فقد تنوعت مؤلفاته بين التاريخ وعلم الأنساب حيث تعرض لتاريخ الدولة الحفصية، وعلم الحديث وعلم الفلك والحساب، إضافة إلى هذا اللغة العربية، التي تظهر من خلال مؤلفاته، من حسن السبك وتوضيح المعنى وبلاغة القول.

كلمات مفتاحية: ابن قنفذ القسنطيني، الكتابة، اللغة، التاريخ، الرحلة، التصوف.

Abstract:

Algerian history has known a number of scientists who devoted their life to science and knowledge. They moved to distant countries looking for science and then they came back to nation for teaching and writing books. Among these, Kunfod El Kostontini who lived in the 8th century of Hidjra, he wrote about history, genealogy, astronomy and mathematics. In addition, he had a good master of Arabic, which appeared in his books

Keywords: Writing, Sufism, language, history, the journey

مقدمة:

عرفت الكتابة الجزائرية تنوعاً في الأجناس الأدبية، ما حدى بالكتاب إلى التأليف في مختلف المواضيع، ونجد الكتابة الرحلية كجنس أدبي تميزت باختلاف مضامينها من رحالة لآخر، حسب تخصص الرحالة ونوعية الرحلة، من هنا بدأت تجربة الكتابة في شتى العلوم والمعارف، فمنهم من آثر العلوم الدينية، ومنهم من مال إلى العلوم المادية، كما نجد من آثر العلوم اللغوية والأدبية، ومنهم من جمع بينهم، لكننا نجد كل منهم برع في فن دون آخر.

ومن العلماء الذين برزوا في الساحة العلمية وخاصة في الدراسات الدينية والتاريخية، نجد أحمد بن حسن الخطيب بن علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ القسنطيني، الذي عاش في قسنطينة ثم ارتحل إلى المغرب الأقصى حيث زار بعض مدنها العلمية كفاس ومكناس وسلا ومراكش، فقد كانت رحلته زيارية - زيارة أضرحة العلماء والأولياء - عمل من خلالها على ملاقات العلماء والفقهاء، أخذوا على أيديهم العلوم الشرعية، كما عمل على وصف حالهم مع العلم.

كما عمل الفقيه ابن قنفذ على ذكر أخبار العلماء وهذا في حد ذاته علم يعتز به، فإن ذكر سير العلماء منهج قد يتبعه المتعلم في تحصيل العلم فسيرهم تعتبر دروساً، لأنهم كانوا على خلق العلم، اتسموا بالتواضع والصبر على مشقة العلم، وسنام ذلك توكلهم على الله في التعلم، فقد جعلوا العلم لله.

من أبرز مؤلفات ابن قنفذ القسنطيني نجد كتابه أنس الفقير وعز الحقير الذي تحدث فيه عن الكرامة والولي وخص بالذكر القطب أبي مدين شعيب الإشبيلي دفين العباد بمدينة تلمسان، وذكر تلامذته وشيوخه، مؤثراً ذلك بقصص وأخبار عنهم، كما له كتاب وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام، وكتاب الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية وكتاب شرف الطالب في أسنى المطالب وكتاب الوفيات الذي يعد ذكر لوفيات الصحابة والتابعين وهو كتاب مختصر يساعد الباحث في بحثه، حيث بدأه بوفاة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وآخر من ذكره المفتي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المراكشي الضرير المتوفى سنة 807هـ.

1. طبيعة الكتابة الرحلية:

أبَّح الإنسان نحو الارتحال، باحثاً عن العلم والمعرفة، وعن حقيقة الذات، نجد الأولى وقد ضُمَّت كثيراً من الاكتشافات العلمية، ونجد في الثانية التعرف على الآخر، وعلى نمط حياته وتفكيره، فالرحلة هي انتقال من مكان معلوم إلى آخر مجهول، لأخذ تجربة انسانية تتميز بدراسة مميزاته، وخصائصه الاجتماعية والثقافية والسياسية والدينية.

كما نجد للرحلة طرفاً آخر تمثل في الكتابة، التي تعدّ إعادة تسجيل للتجربة الرحلية، وتعد هذه المرحلة الثانية، أما الأولى فتكون أثناء الفعل الرحلي يكون الرحالة في حالة جمع للمادة الرحلية، بما تحويه من ملاحظات عن الطريق ووصف لمخاطرها، ومخاطبة الشخصيات ومحاورتها، وملاحظة سلوكيات وأفعال الآخر، مدونا ذلك في مذكراته أو يومياته ومخزنا الآخر في الذاكرة، الذي قد يذكره قد ينساه.

تأتي بعد ذلك مرحلة الكتابة التي تعدّ إعادة بناء للفعل الرحلي، حيث يبدأ الرحالة في إخراج مادته الرحلية التي تحولت إلى لغة، وتشكلها في خطاب منظم موجه للآخر، معتمداً على التصنيف حسب طبيعة الأحداث أو حسب الزمن أو المكان، لذا نلمس في بعض الرحلات أن بعض الأحداث جاءت في البداية حسب الترتيب الزمني للرحلة، لكنها خلال الكتابة خضعت لمبدأ ترتيب الكاتب، فيتغير بذلك ترتيبها الزمني.

عمل الرحالة ابن قنفذ على زيارة المغرب أكثر من مرة مشيراً إلى زيارته لضريح القطب أبي مدين شعيب يقول: ((زرتة مرارا ورأيت له أسرار فمنها زيارتي له مع أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبي العباس ابن الأمراء الراشدين وذلك سنة احدى وستين وسبعمائة في وجهته من المغرب الى بلد قسنطينة))¹، ثم يواصل ذكر زيارته الثانية قائلاً: ((وأخر زيارتي له عند احتيازي عليه في ارتحالي من المغرب إلى قسنطينة وذلك في سنة ست وسبعين وسبعمائة، وفي هذه السنة كانت المجاعة العظيمة بالمغرب وعم الخراب به، فوردت تلمسان والحالة هذه وأقمت بها قرب شهر غير واحد للطريق))²

1 كتاب أنس الفقير وعز الحقيير

الكرامة والولي: إن الولي هو المنارة الوحيدة التي يبصرها التابع، وكل عمل تابع له وتحت إشرافه، رغم غيابه الجسدي فهو حاضر يأمر وينهي، أو بالأحرى يطاع على الدوام، وكل ما هو له مصان مقدّس، فقدسيته غير محدودة، شملت الذات في وعيها وفي لا وعيها، فإحلال الذات في حبه والانزواء إلى زاويته، والعمل تحت جناحه، هو السبيل الأوحده للنجاة ولبلوغ المراد، ((الشيخ من جمعك في حضوره وحفظك في مغيبه وهذبك بأخلاقه وأدبك بطرائقه، وأثار باطنك بإشرافه، والتاجر برأسمال غيره مفلس، الغدارة تكرار الفكر في الفؤاد بمادة من الحرص فيما جرد من الذكر، ويجتهد بأن يكون ذلك احتسابا لا ثوابا، وعبادة لا عادة، لأن من لاحظ المعمول له اشتغل به عن رؤية الاعمال))³ وقدسية الولي تمتد كذلك إلى قداسة الأنبياء والصالحين.

يعمل الفقيه ابن قنفذ على ذكر صفة الولي مستندا على حديث النبي عليه الصلاة والسلام يقول: ((فأما صفة الولي فقد دل رسول الله صلى عليه وسلم، على صفة الأولياء فقال: " الذين إذا رؤوا ذكر الله" وفي هذا الحديث الشريف من الدلالة كفاية تامة، فأولياء الله تعالى الذين إذا رآهم المؤمن عظم ربه، وذكر ذنبه، ويجب أن تلمس بركاتهم وتغنم بركاتهم، والأصل في ذلك الاقتداء بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين ذكر له أويس القرني "إن استطعت أن يغفر لك فافعل" ومعناه الحض على لقائهم وطلب دعائهم))⁴.

يركز ابن قنفذ على قاعدة قداسة الولي، عاملا على تقوية خطابه بذكر حديث النبي، محاولا إقناع السامع وإقامة الحجة عليه، وهذه قاعدة فقهية لأجل اصدار حكم شرعي.

يعمل الفقيه في خطابه على اتباع أسلوب الحجاج المبني على إقامة الحجة فبعدهما أتى بحديث النبي صلى الله عليه وسلم، يأتي بقول الشيخ أبي يعزي رحمه الله ((ما لهؤلاء ينكرون الكرامة والله لو كنت قرب البحر لأرثتهم المشي على الماء))⁵، ويواصل أسلوب الحجاج فيذكر قصصا لأصحاب النبي، ((ففي البخاري أن رجلين خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة فإذا النور بين أيديهما حتى تفرقا ففرق النور معهما))⁶، ثم يذكر كرامة لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما نادي يا سرية الجبل وسمعه سارية و بينهما مسيرة أيام.

ارتحل ابن قنفذ إلى المغرب الأقصى قاصدا زيارة العلماء والمشايخ، وكان مما التقى بهم الشيخ ابن عاشر الذي أقر له بالورع والتقوى والصلاح، وقال أن قبره موجود بمدينة سلا وهو مزار من قبل الكثير، فقد اعتمد الرحالة ألية الحركة التي تعد وسيلة لمعرفة الآخر والاطلاع على ثقافته ((فالحركة روح الحياة وهي سمة أساسية في التركيب الجسدي والنفسي للإنسان، وقد هيأه الله لها وجعلها إمكانية ضرورية لحياته، تتسق مع الهدف من إيجادها، والغاية التي خلق لأجلها، وهي تعمير الأرض وعبادة الله تعالى، (...)) وإذا كان العالم اليوم قرية صغيرة، فإن العالم في الماضي كان قرى مبعثرة فوق رقعة هائلة من المعمورة، ولم يكن من سبيل لمعرفة الأحوال خارج القرية الواحدة إلا الترحال))⁷.

يوصل ابن قنفذ رحلته وفي طريق عودته إلى قسنطينة عرج على مدينة تلمسان التي زار فيها ضريح القطب أبي مدين شعيب، الذي يؤكد أنه المقصد من رحلته ويقر له بالتقوى وحسن التوكل ((كان زاهدا في الدنيا عارفا بالله تعالى وخاض بحارا من الأحوال، ونال من المعارف الربانية الآمال، ومقامه الخاص به الذي لا يلحقه في أحد التوكل على الله تعالى، وكان له بسط وقبض، فبسطه بالعلم، وقبضه بالمراقبة))⁸.

كما يصرح في كتابه أن أباه الحسن الخطيب هو تلميذ للغوث أبي مدين شعيب، وهو بفخر بهذا الشرف الذي أورثه إياه أباه، فهو من عائلة عرفت بالعلم والوجاهة، لهذا نراه يبحث عن منابع العلم والعلماء في كل المغرب الكبير، ودليل ذلك كتبه الشهادة عليه فقد كتب عن الجزائر والمغرب وتونس في كتابة الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية وهذا دليل على ميله للتاريخ ومعرفة الأنساب وتاريخ الوفيات وأخبار العلماء والصالحين.

كما عرفت الرحلة الثقافية بأنها سفر وانتقال من مكان إلى آخر، بغية البحث عن المعرفة ولأجل الإصلاح الاجتماعي، ولزيارة البقاع المقدسة، كما نجد لها دوافع تتنوع بتنوع الحاجة الداعية إليها، حيث نجد الرحالة أثناء رحلته يتميز بدقة الملاحظة والوصف، وكأنه مطالب بتقديم دراسة عن شعب يلتقي به فهو بذلك أصبح إثنوغرافيا لذلك ((فقد اتصف أغلبية الرحالة ولو بدرجات متفاوتة، بدقة الملاحظة والوصف والتقصي، في تسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق، كما حرص معظمهم على التفرقة بين المشاهدة

والرواية عند تسجيل معلوماتهم، هذه كلها سمات قد أصبحت الآن بمثابة قواعد أساسية من منهجية البحث الحقلية في الدراسات الإثنوغرافية بالمعنى الحديث))⁹.

2 أخبار الفرق الاجتماعية بالمغرب:

نكتشف في أسلوب ابن قنفذ أنه دارس اجتماعي بامتياز فقد عمل على دراسة المجتمع المغاربي، فقد حدد فرقه الاجتماعية، وذلك باتباع طريقة السؤال والبحث وهي طريقة التعلم، خاصة وأنه قد اكتسب مكانة علمية رفيعة ويذكر لنا ذلك من خلال مقابلته للشيوخ و رؤية الناس له، هذا ما يسر له السؤال و البحث بكل حرية وراحة.

يحدد الطائفة الأولى: بالشعبيون وهم طائفة الغوث أبي مدين شعيب ويقطنون بآزمور وهم من أشياخ الشيخ أبي يعزى.

الطائفة الثانية: الصنهاجيون: من بني أمغار من بلد تيطنظطر من أقران أبي شعيب.

الطائفة الثالثة: الماجرئون: طائفة أبي محمد صالح ومنهم الدكاليون.

الطائفة الرابعة: الحجاج لا يدخل في جماعتهم إلا من حج بيت الله الحرام.

الطائفة الرابعة: الحاحيون وهم جملة من جبل درن وهو الجبل العظيم، وهم طائفة الشيخ الحاج

الشهير أبي زكرياء يحيى بن أبي عمرو عبد العزيز بن عبد الله بن يحيى الحاحي.

الطائفة السادسة: الغماتيون وهم طائفة الشيخ الولي الشهير أبي زيد عبد الرحمن الهزميري وقبر

أبي زيد داخل باب الفتوح من أبواب مدينة فاس.

كما تضمنت الرحلة كثيرا من الطرافة هادفة إلى الإمتاع والمؤانسة، موظفة ما هو غرائبي، مما شاهدته عين الرحالة من العادات والتقاليد، ومن عجائب الطبيعة، فالرحالة يخضع لمنطق الحكيم والسرد، والقارئ يأخذ معرفة محددة من خلال وجهة الرحالة، على اعتبار أنّ الرحلة نمط سردي خاضع لمنطق الرحالة ولفكره، يقول سعيد بن سعيد العلوي: ((إنّ الرحلة إنباء عن ذهنية الرحالة وتصوير لمكونات الوعي

الثقافي، عنده أكثر مما هي حديث عن البلد، موضع المشاهدة، أو إخبار عن القوم أهل البلد أو الإقليم موضوع الزيارة¹⁰ .

يحتج كتابه بذكر فضل الفقراء والصلحاء ويوصي بصحبتهم وقراءة أخبارهم وتتبع سيرهم وذكرهم بخير ويذكر في ذلك حديث النبي عليه الصلاة والسلام ((أكثروا من صحبة الصالحين فإن فيهم الشفعاء))¹¹ ، ثم يوصي بالتعاون والتناصح فيقول الدين النصيحة والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص وسلامة الصدور رأس العبادة وأساسها.

3 اعتناؤه بعلم التاريخ:

رأى ابن قنفذ أهمية كبيرة لعلم التاريخ فعزم على التأليف فيه، وهذا هو دربه ومنهجه فقد كتب في كتابه أنس الفقير ما يدل على ذلك، كما كتب في كتاب الوفيات عن الصحابة والتابعين، كما نلمس من خلال تتبعنا لمراحل حياته العلمية أنه كان يؤثر جمع الأخبار من مصادرها ويعمل على تحقيقها، وهذا يعتبر ارتحال بصورة غير مباشرة وهم ما يمكننا التعبير عنه بالرحلة الخيالية.

إنّ الرحالة يعمل على نقل ثقافة محددة من مكان معين إلى مكان آخر، ينتقل بأفكاره وثقافته متأثراً ومتأثراً، هذا ما نجده مثلاً في رحلة ابن فضلان لما ارتحل إلى بلاد الروس معلماً إياهم ثقافة العرب، والدين الإسلامي، وفي نفس الوقت كان يأخذ ثقافتهم بعين الفقيه والمتأدب، لكنه امتاز بنظرة التعالي، فثقافته هي الأصل حيث وجدها هي الأفضل، كما يكون الرحالة آخذاً من الآخر ما رآه خادماً لإنسانيته، ((فأدب الرحلات يهتم بعملية المتأقفة والصراع القيمي الذي يحدث داخل عقل المرتحل، وبالأسئلة التي تلمع في ذهنه أثناء مشاهداته وتأملاته حياة الشعوب الجديدة وعاداتها بالنسبة إليه، بحيث لا تتحدد ماهية كتب الرحلات بصفتها كتباً جغرافية أو تاريخية، بقدر ما تتحدد بصفتها كتباً علمية تأملية فلسفية وأثروبولوجية))¹² .

كتب ابن قنفذ كتابه المسمى الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، التي كانت قائمة بأرض قسنطينة وتونس، ويبدو أن ابن قنفذ كان ميالاً لهذه الدولة، فقد كان نسبه يقترب إلى هذه الدولة، كما

أن أجداده كانوا من المواليين للدولة، ويقال أنه كتبها لسلطانها أبي فارس عبد العزيز الذي كان على رأس الدولة الحفصية، ويبدأ ابن قنفذ التأليف بأول سلطان للدولة وهو المهدي أبو عبد الله محمد بن عبد الله حيث ارتحل إلى المغرب معه عبد المؤمن بن علي، الذين أسسا دولة الموحدين.

قد عمل الرحالة على تضمين أسلوبه بأخبار تاريخية، وتراجم لشخصيات سياسية وعلمية واجتماعية، فالرحلة تعتبر نصا جامعا لكم معرفي امتاز بالتنوع، والتعدد، عاكسا لشخصية الرحالة ((فالرحلة بالنسبة إليه وسيلة نصية لإبراز رصيده الثقافي، ومعرفته العلمية، وقدرته التعليمية التي لم تغادره لحظة واحدة))¹³، كما ارتبطت الكتابة الرحلية بالتاريخ، فهي تحوي أخبارا تاريخية هامة، كما يعتبر نصها الإخباري حدثا تاريخيا، فتكون بذلك حاملة للتاريخين، اختلف زمنهما تاريخ ماض ينقله الرحالة من ذاكرته أو من مرجع معين، أو مسندا إياه لشخص ما، وتاريخ يكتبه الرحالة أثناء رحلته، يتمثل فيما يراه ويسمعه ليكون بذلك ناقلا للخبر وحينما آخر مشاركا فيه.

¹⁴ عمل ابن قنفذ على ذكر سلاطين الموحدين بدءا من سلطانها عبد المؤمن بن علي ليعود إلى ذكر من تولى الحكم من ولد الحفصيين بدءا بالشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن الشيخ المقدس أبي حفص، إلى أن يصل إلى مقيم الدولة الحفصية والمنقلب على الموحدين الحاكم أبو زكرياء ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد الذي بويع سنة 626هـ.

يبدو أن ابن قنفذ قد سار على مذهب مدح الحفصيين بالرغم من أنهم انقلبوا على الموحدين الذين مهدوا لهم الطريق، ولا يخفى على عاقل ميل ابن قنفذ إليهم، وقد اتبع طريقة أجداده في مدحهم للسلاطين، وله وجهة نظر يريد تبليغها للمتلقي، بالرغم من أنه يوضح بعض الحقائق، وفي خلال سرده للوقائع التاريخية يعمد إلى ذكر العلماء وسيرهم لأنه يقر بأهميتهم على المستوى العلمي والسياسي، ((اعلم أن كتابة التاريخ ينبغي أن تختلف باختلاف الأحوال، فالمؤرخ لأجل الأغراض الخاصة وللدعاية، له أن يُراعي المبدأ الذي أُلّف لأجله، فيرفع ما يشاء ويضع ما يريد، ويذكر ما يرضاه أو يُرضيه، ويغفل ما لا يوافق مبداه ومراده، يُشيد بذكر ما يؤيد رأيه ومذهبه، ويحط من قيمة كل ما

يُخالف ذلك، أمّا التاريخ الحقيقي الذي يكتب للاعتبار، ويسجّل مختلف الحوادث والأخبار، فينبغي أن يكون كالمرآة أو كآلة المصورة التي تُثبِت الأشياء كما هي، والمؤرِّخ الصادق، الكاتب الحر هو الذي يثبت الحوادث كما وقعت، ويصف الأشخاص والأشياء بأوصافها الحقيقية بدون مبالغة ولا بَخْس، فبذلك يُعرِّف مقام المصلِّحين، وفضل المُحْسِنين، وكفاح العاملين، وجهود المخلصين، كما يعرف أيضاً جبروت الظالمين وطفَّان المعتدين))¹⁵.

إن ابن قنفذ لم يكتسب الشهرة التي اكتسبها باقي المؤرخين عبر مختلف الأزمنة كالطبري، والمسعودي، وابن خلدون، لكنه اتبع طرقهم في سرد الأحداث متتابعة حسب تعاقب السنوات، كما تتسم نوعا ما بالاختصار وهذا ما لمسناه في مؤلفاته فلا يذكر إلا ما يراه خادما لغرضه الأساسي.

وينتهي كتابه بولاية الأمير أبوفارس بن أبي العباس لتكون آخر سنة يؤرخ لها سنة 805هـ، حيث ذكر فيها عودة السلطان من حربه على من تمرد عليه، وبها كان الوباء في تونس ما اضطر السلطان إلى العودة لقسنطينة.

فالرحلة نص جامع لمجموع من التعابير الإنسانية من تاريخ وقصة وحكاية وشعر، تحكمها سلطة الكتابة التي تحفظ لها استقلاليتها عن باقي الأجناس، ((كما تصبح الرحلة بمختلف أنواعها نصوصا قابلة لانتسابات مفتوحة، تنطلق من كونها أشكالا تعبيرية استطاعت من خلال التراكم الذي استدعته الضرورات الثقافية والتاريخية الحضارية، أن تؤسس لبناء وصوغ مستقلين ومتفاعلين داخل منظومة النصوص السردية العربية، استقلالا إيجابيا منفتحا على أشكال أخرى قريبة وبعيدة، وتؤسس أيضا إدراكا متنوعا للواقع والمتخيل، فيتسع الإدراك في النص بين واقع مشاهد وآخر متخيل، مما يقود إلى توليد واقع ثان، يحمل خطابه و نسقه الخاص والعام))¹⁶.

4 اعتمائه برواية الحديث وأدب الطالب في ذلك:

عمل ابن قنفذ مواصلاً اجتهاده في تحصيل العلوم وموفراً جهداً غير قليل على طالب العلم المبتدئ في دراسة الحديث النبوي الشريف، حيث عمل على شرح القصيدة الغزلية التي نظمها أبو العباس الإشبيلي في ألقاب علوم الحديث.

يعمل ابن قنفذ في شرح القصيدة على الشرح اللغوي والنحوي، ثم ينتقل في الأخير إلى ذكر أنواع الحديث التي تضمنها البيت في اختصار بليغ، كما يتبع الأسلوب الرامي إلى الإقناع وإقامة الحجّة، وذلك حتى يشعر القارئ بحقيقة ما يقول، ولا يفتح أمامه مجالاً للشك.

نجدّه يقول مثلاً في الاهتداء إلى صحة الحديث: ((وإذا وجد حديث صحيح الإسناد سالماً من العلل، غير موجود في مصنفات أئمة الحديث فلا يجزم بصحته، بل الاعتماد على ما نص عليه أئمة الحديث في تصانيفهم المشهورة المأمونة من التغيير والتحريف.

وأول من صنف الصحيح: أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري وبعده مسلم بن الحجاج القشيري، وموطأ مالك سابق عليهما، وفيه قال الشافعي: ما أعلم في الأرض كتاباً في العلم أكثر صواباً من كتاب مالك، فأصح الكتب بعد الصحيحان))¹⁷.

من المحتمل أن ابن قنفذ كان يمارس مهنة التعليم، خاصة إذا علمنا أنه يمارس القضاء، الذي يستوجب علماً واسعاً ورجاحة عقل وبعده نظر، ومخاطبة الناس بما يدركونه، هذا ما نراه في كتاباته من الوضوح والاختصار، فهو يقصد فئة متوسطة العلم أو فئة المتعلمين حتى يحصل الغرض وتتحقق الغاية.

كما أدرج في كتابه التذكير بآداب المحدث وطالب العلم، ويذكر في ذلك مجموعة من الأحاديث النبوية أقوال العلماء، وبعد ذكره لكل أنواع الحديث التي ذكرها أهل الحديث قبله يذكر آياتاً من الشعر في فضل الحديث وروايته، ليختتم كتابه سنة 807 هـ بقسنطينة.

قد اعتنى ابن قنفذ القسنطيني بوفيات الصحابة والتابعين وعلى رأسهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا الكتاب جاء تذييلاً لكتاب شرف الطالب في أسنى المطالب، وقد رأى هذا مهماً في معرفة أخبار الرجال و حتى يعرف حقيقة الراوي ويتحقق من صدقه، فقد تجد أحياناً رواية يروي عن

شخص مات بعده قد يقول سمعت و السماع من أوجه رواية الحديث، لكن لا يمكن السماع من ميت فيعلم دارس الحديث أن في الحديث علة وضعف سند، فيضعف الحديث أو يترك.

بدأ كتابه هذا بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم في السنة 11 للهجرة، وختم كتابه بوفاة الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المراكشي الضرير كما قال في بلدنا ببونة في آخر ذي الحجة تكملة سنة 807هـ، وكانت ولادته سنة 739هـ.

هذا نزر يسير مما يمكننا قوله عن العلامة ابن قنفذ، فقد عمل على مماثلة العلماء ورجال الصلاح، فكان رجلا صالحا و عالما يفخر به كل طالب للعلم وكل مغربي وجزائري، لكننا للأسف الشديد نجد الكثير من مثقفي بلادنا يجهلونه كما يجهلون كثيرا غيره، من رأينا أن نعمل على التذكير به كما عمل آخرون على التذكير بعلماء آخرين، سائلين الله تعالى التوفيق لنا ولمن كان له الفضل بعد الله عز وجل في تذكر هؤلاء النجوم.

5 جهود ابن قنفذ اللغوية:

من خلال ما رأيناه سابقا يظهر لنا أن ابن قنفذ كان كاتباً موسوعياً فقد اتسعت معارفه الفكرية عبر أجواء العلوم السائدة في زمانه، ونجد من أبرزها العلوم اللغوية، التي لا ينفك عنها أي عالم في ذلك الزمان، و الشيخ ابن قنفذ كان فقيها وقاضيا ومحدثا هذا ما ينم على قدرته اللغوية خاصة أنه يذكر لنا بعض شيوخه في هذا الميدان يقول: ((توفي شيخنا قاضي الجماعة بقرنطة حرسها الله تعالى أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسني السبتي وكتب لي الإجازة العامة، بعد التمتع بمجلسه، وله شعر مدون سماه جهد المقل وله شرح الخزرجية في العروض وقد م عليها بعد أن عجز الناس عن فكها، وكان إماما في الحديث والفقه والنحو، وهو على الجملة ممن يحصل الفخر بلقائه، وبم يكن أحد بعده مثله بالأندلس))¹⁸، فقد تلقى علوم اللغة على شيخه أبو القاسم وهذا خلال رحلته بالمغرب الأقصى.

كما أن الشيخ تعلم على يد العلامة لسان الدين الخطيب المتوفى سنة 771هـ صاحب كتاب الإحاطة في اخبار غرناطة، وكان علامة في اللغة والأدب، وقد تعلم ابن قنفذ منه بلاغة القول، وحسن اختيار اللفظ وإيصال المعنى.

كما أخذ عن ابن مرزوق التلمساني الذي كان آية في الأدب واللغة وعلوم الدين، كما أنه درس بجامعة الزيتونة التي كانت تجمع بين العلوم اللغوية والدينية، ونجد له كتاب **ايضاح المعاني في بيان المباني**، الذي وضعه شرح لرجز في المنطق نظمه الفقيه أبو عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه أبي عبد الرحمن المراكشي الضريير، كما نجد له كتاب **الإبراهيمية في مبادئ علم العربية**، وهما للأسف يعتبران من الكتب الضائعة، ولو وجدت لأفادت الدراسات اللغوية كثيرا.

لابن قنفذ مؤلفات نلمس من خلالها قدرته على التأليف وتمكنه من الصناعة اللغوية، فاللغة تصير طيبة بين يديه، ونجد على سبيل المثال هذا في مؤلفه وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام نجد له أسلوبا مختصرا مشوقا يجد القارئ فيه لذة في القراءة، كما إنه يحسن الاقتباس ويقدم المعلومة في أسلوب راق وواضح ومقنع يقول مثلا في خواص النبي عليه الصلاة والسلام في تعريفه لشخصية طلحة بن عبد الله ((وهو طلحة الخير وطلحة الجود وطلحة الفياض وكثير الصدقة وكثير الفضائل، و كان يقي بنفسه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحرب، وقتل بسيفه يوم الجمل في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وسنه ستون سنة، وأخرج من قبره بعد سنين، رؤية رآها رجل قال: رأيت طلحة في النوم فقال أخرجوني فإن الماء آذاني، فأخرجه بن عباس ولم يتغير منه شيء ووجد الماء تحت شقه ودفن في مكان آخر))¹⁹، نراه يورد الخبر دون اسناد لكن من المؤكد أنه اطلع على هذه الأخبار من مصادرها، فأراد أن يكون له أسلوبه الخاص.

4. خاتمة:

ختاما لهذا المقال نصل إلى مجموعة من النتائج:

- يعتبر ابن قنفذ القسنطيني من جهاذة العلماء الجزائريين الذين مارسوا مختلف أنواع الكتابات الأدبية والعلمية، ولا زالت تحتاج إلى الدراسة والتحليل.
- مثلت الكتابة الرحلية عند ابن قنفذ مجالا خصبا للوصف والتعريف بالشخصيات الدينية المغاربية.
- جاء تيمة الخبر التاريخي في الخطاب الرحلي خاضعة للمقاييس العلمية المتصرفة بالدقة العلمية.
- اعتبر المذهب الصوفي منبعا للكتابة الرحلية، حيث جاء مؤثرا بوصف الأضرحة وذكر أخبارهم.
- اعتبر الرحالة دارسا لحياة الشعوب ومخبرا عن مشاهداته محورا في ذلك القارئ.
- جاء الخطاب السردي الرحلي مطعما بمادة تاريخية ودينية واجتماعية، ليكون بذلك نصا ثقافيا متنوعا.
- عمل الرحالة على تجسيد الوحدة الثقافية للمغرب العربي، فكل ثقافة تكمل ثقافة أخرى.

5. قائمة المراجع:

- ¹ - ابن قنفذ القسنطيني 1965، أنس الفقير وعز الحقير، ، اعتنى بشرحه محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ص 105
- ² - المصدر نفسه، ص 105
- ³ - آداب المریدین فی التصوف، 1999، أبو بكر الشيباني الموصلي، تحقيق ونشر صلاح الدين سيباني، لجنة إحياء التراث، ص 32.
- ⁴ - أنس الفقير وعز الحقير، 1965، ابن قنفذ القسنطيني، اعتنى بشرحه محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ص 02.
- ⁵ - المصدر نفسه، ص، 4.
- ⁶ - المصدر نفسه، ص 04.
- ⁷ - قنديل فؤاد ، (2002)، أدب الرحلة في التراث العربي، ط.2، مدينة نصر، مكتبة الدار العربية للكتاب، ص 17-18.
- ⁸ - المصدر السابق، ص 11.

- ⁹ - حسين محمد فهميم، أدب الرحلات، عالم المعرفة العدد 138، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص 16.
- ¹⁰ - العلوي سعيد بنسعيد ، (1995)، أوروبا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث و دراسات رقم 12، ط.1، ، ص 15.
- ¹¹ - المصدر السابق، ص 89.
- ¹² - الشيخ عبد الرحمن بن إدريس التنيلاتي، الرحلة، تحقيق خير الدين شترة، بوسعادة الجزائر، دار كردة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2015، ص 10.
- ¹³ - مودن عبد الرحيم ، أدبية الرحلة، 1996، ط. 1، الدار البيضاء، دار الثقافة للنشر و التوزيع، ص31.
- 14
- 15 - محمد داود، 1959، تاريخ تطوان، تقديم محمد بنونة، معهد مولاي الحسن، تطوان ج 1، ص، 33.
- ¹⁶ - حليفي شعيب ، الرحلة في الأدب العربي، ط.1، القاهرة، رؤية للنشر و التوزيع، (2006)، ص44.
- ¹⁷ - شرف الطالب في أسنى المطالب، ابن قنفذ القسنطيني، تحقيق عبد العزيز صغير دخان، مكتبة الرشد، الرياض، ط 01، 2003، ص 76.
- ¹⁸ - ابن قنفذ القسنطيني، كتاب الوفيات، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.4، 1983، ص362.
- ¹⁹ - ابن قنفذ القسنطيني وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام، ، تحقيق سليمان الصيد، دار الغرب الإسلامي بيروت، ص 75.